

الباب الثالث
نظرة فى شعر المؤيد

obeikandi.com

الفصل الأول

نظم المؤيد

كان المؤيد رجلا صاحب فن كما كان علما من أعلام المذهب الفاطمي . ولكننا نستطيع أن نقول إن فن المؤيد نتيجة لاعتناقه مذهب الفاطميين . كما كان نتيجة للحياة التي كان يحيها والبيئة التي كان يعيش فيها.

كانت صفته المذهبية تضطره إلى أن يحيط بكل شيء حوله . وأن يلم بالآراء الفلسفية والمذاهب الدينية التي كانت تملأ الأقطار الإسلامية في عصره . فاضطرته إلى أن يأخذ بحظ وافر من الحياة العقلية المختلفة . وكان المؤيد مضطرا أيضا إلى أن يرد على مخالفي مذهبه طورا بالكتابة وطورا بالمجادلة والمناظرة الشفوية . فكان ذلك من الأسباب التي أدت إلى أن يكون المؤيد حريصا أشد الحرص في أسلوبه ولفظه وأن يكون ناقدا مدققا . ينظر ويمد نظره ويقرأ ويطيل القراءة . ويفكر ويمعن في التفكير ويحلل أقوال خصومه تحليلا دقيقا حتى يعرف موطن ضعفهم كي يهاجمهم منه ويفند آراءهم . كما اضطر أيضا إلى أن ينقد نفسه ويحاسبها وينقد فنه قبل أن يذيعه في الناس حتى يستطيع بذلك أن يدافع عن عقيدته دفاع رجل يريد إفحام خصومه بمنطقه وبيانه . ولذلك كان لملكة النقد أثر قوى في فن المؤيد . فقد اضطرته إلى أن يتخذ الأسلوب الذي يبهر به السامعين أو القراء ويجعل من أسلوبه سلاحا بجانب منطقة وبيانه . والمذهب الفاطمي الذي كان المؤيد قطبا من أقطابه وداعية من دعائه جاء بعلم الباطن أو التأويل وقد ذكرنا أن أساس التأويل يعتمد على قوة الملاحظة وخصوصية الخيال وقدرة على التغلغل في دقائق الموجودات ليتخذها المؤول دليلا على أسرار الدين . ولا يستطيع إنسان أن يرقى في مراتب الدعوة الفاطمية إن لم تكن لديه هذه المواهب والخصائص . وهذه كلها كانت تتوافر لدى المؤيد بل كانت قوية جدا عنده حتى رفعته إلى أعلى درجات الدعوة . كما أثرت في فنه فاتجهت به اتجاهها خاصا لا نكاد نجده عند شاعر آخر في عصره إلا عند أبي العلاء المعري . فأبو العلاء والمؤيد هما الشاعران اللذان استطاعا أن يوصفا في شعرهما اختلاف عقائد الناس في عصرهما وأن يتحدثا عن الفرق الدينية والآراء الفلسفية وغير الفلسفية وعن الحياة وعن الموت وعن دقائق الكائنات العلوية والسلفية.

أضف إلى ذلك كله أن المؤيد كانت له نزعة أدبية ومزاج فني توصل بهما إلى أن يخرج
فنه أحيانا من فن العلماء الخالصين إن صح أن يكون للعلماء فن.
لا ننكر ان علم المؤيد كان قوى الأثر في نفسه. وقد يكون علمه وقوة عقله من أسباب
ضعف شعره في كثير من الأحيان. إذ أصبح علمه واضحا جليا بينما اختفى فنه أو كاد
يختفى لأن المؤيد كان يتجه أحيانا إلى اتجاه علمي يختلف عن الاتجاه الفني الذي يقصد
إليه الشعراء ورجال الفنون. أى أن خيال المؤيد كان يضعف أمام علمه وعقله. وإذا قرأنا
ديوان المؤيد يروعنا أنه في أكثر قصائده قد عنى عناية تامة ببحث عقائد مذهبه والدعوة
إليها في أسلوب العلماء. فطغى ذلك على جمال بعض قصائده بل لا أغالى إذا قلت إن
علمه في هذه القصائد قد أفسد عليه الشعر حتى لم يبق له من سمات الشعر سوى الوزن
والقافية. ولذلك لا أستطيع أن أسمى بعض قصائد هذا الديوان شعرا. فالرجل الذي يفرح
أو يألّم أو يرى منظرا أو لونا من ألوان الحياة تؤثر في نفسه ويعبر عما في نفسه هو
الشاعر الطبيعي الذي نستطيع أن نطمئن إلى أن نسمى ما يقوله شعرا. أما هذه القصائد
العلمية التي أراها في ديوان المؤيد فهي ليست بشعر. بل هي متون علمية نظمت وأخذت
هيكل الشعر. فهي تخلو من أهم عناصر الشعر. فلا أجد بها عاطفة ولا خيالا، إنما هي
آراء علمية اعتنقها فريق من الناس واعتقدوا صحتها. ونبذها فريق آخر واعتقدوا بطلانها.
فهذه المتون العلمية التي صيغت في قالب الشعر ما هي إلا نظم. فعلى هذه الصورة
أستطيع أن أسمى المؤيد ناظما مثله في ذلك مثل أبي العلاء المعري في لزومياته، فالمعري
في هذا الديوان ليس بشاعر إنما هو ناظم صاغ آراءه في قالب الشعر والتزم فيها ألوان
القوافي وضروب الوزن فكان تقيده بما لا يلزم وما حمل ألفاظه من آراء علمية وفلسفية سببا
في أن يبعد ديوان اللزوميات من دائرة الشعر الخالص ويجعله أقرب إلى النظم منه إلى
الشعر. والناظم في أسلوبه يختلف عن الشاعر في أسلوبه. إذ تغلب على الناظم النزعة
العلمية فيعمد إلى المعاني يختارها ويحاول أن يوفق في تقريب معانيه وأفكاره إلى عامة
الناس. بخلاف الشاعر الذي يبغى أن يصور نفسه أو بيئته فتملئ عواطفه عليه الشعر
ويصدر قوله عن وحي إلهامه وخياله. فالناظم خاضع لعقله وعلمه لا ينطق بشيء إلا بعد
جهد ينفقه في التفكير حتى يلائم بين المعاني العلمية التي يريدتها وبين القالب الشعري
الذي يصوغ فيه علومه. أما الشاعر فله ملكته الفنية وشعوره المرهف فهو خاضع لإلهامه
وعواطفه لا يجهد نفسه في اختيار المعاني أو اللفظ. إنما ينطلق لسانه بما تجيش به نفسه
من غير تصنع أو تعمد كالذي يضطر إليهما الناظم.

جاء في الصناعتين (شعر الرجل قطعة من علمه)^(١) وقد صدق أبو هلال في قوله، فالشاعر الذى يلم بعلم غزير يظهر أثر علمه فى شعره. فإذا اتخذ الشعر وسيلة لإظهار علمه فسد شعره وإذا ترك نفسه على طبيعتها وأخضع علمه لفنّه فهو يخرج لنا شعرا قويا جميلا. فعقلية العالم تختلف تمام الاختلاف عن عقلية الشاعر، وفى تاريخ الشعر العربى ما يمثل ذلك كله فلا شك أن تقدم الثقافة الإسلامية وانتشارها بين الناس ورقى العلوم نفسها كان لها شأن كبير فى تكييف طبيعة الشعراء وصبغهم بصورة العصر وثقافته، فشعراء القرن الثانى للهجرة مثلا كانوا على حظ من الثقافة لم يبلغه الشعراء الذين سبقوهم وتغير شعر القرن الثانى تبعا لثقافة الشعراء فبشار بن برد والحسن بن هانئ كانا يجادلان فى الفلسفة والكلام ولكن هذين الشاعرين مع أنهما تحدثا عن بعض الآراء الفلسفية والعلمية استطاعا أن يخضعا علوم الفلسفة لفنهما الشعرى. ونحن نقرأ شعرهما فلا نكاد نشعر أننا نقرأ رأيا فى الكلام أو مذهبا فى الفلسفة لأن مقدرتا الشاعرين وفنهما استطاعا أن يخضعا العلم للفن وطبيعة الشاعرين صرفتهما عن العلم إلى الشعر ولكنهما استفادا مما أخذاه من ثقافة فإذا فى شعرهما جمال لا نجده عند عالم متشاعر كبشر بن المعتز المعتمز المتوفى سنة ٢١٠ هـ. ذلك أن بشارا وأبا نواس لم يتخذا العلم غرضا من أغراض الشعر ولم يقصدا إلى أن ينشدا أشعارهما فى لون من ألوان الثقافة لعرضه وتوضيحه. بل كانا يتندران ببعض الآراء ويهاجمان بعض المتكلمين.

وفى القرنين الثالث والرابع نجد الشعر العربى قد تطور تطورا آخر برقى الثقافة واتساع مداها ومساهمة الشعراء فيها مع العلماء وأصحاب الفلسفة فلا نكاد نجد شاعرا من فحول شعراء هذين القرنين لم يشترك فى الحركة العلمية وأصبح الشعراء يزينون شعرهم بألوان الثقافة المختلفة ويمزجون علمهم بفنهم الشعرى. وألف الناس هذا المزاج وأعجبوا بهذا الشعر الذى يغذى العقل كما يغذى العاطفة فلم يصبح الشعر شعرا فنيا فحسب كما كان من قبل. بل أصبح الشعر أداة كالنثر يعبر به عن الفلسفة والمذاهب العلمية المختلفة، وتبع العلماء طريقة الشعر التعليمى الذى بدأه أبان بن عبد الحميد اللاحتى وأكثروا من نظم علومهم وقوى هذا كله فى القرن الخامس الذى كادت تستقر فيه العلوم الإسلامية ووضعت الكتب العديدة فى كل لون من ألوان الثقافة فازداد حظ الشعراء من هذه العلوم حتى يخيل إلينا ان الشعراء هم العلماء والعلماء هم الشعراء. فعلى الشعر بالعلوم وفخر العلماء بإنشاد الشعر كقول المؤيد:

وهاك قريضا فيه علم وحكمة وفيه ضياء الرشدا أنى تأملتا

ولا نجد بين علماء هذا القرن من يردد قول الشافعي :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنك اليوم أشعر من لبيد

فالمتنبى وأبو العلاء استطاعا بما اكتسباه من علم أن يأتيا في شعرهما بحكم وأمثال وسمو في الخيال لم يستطع أن يأتي بمثلها شاعر كأبي نصر الخبزأرزي أو شاعر كابن لنكك البصرى اللذين لم يأخذا من الثقافة إلا بمقدار يسير فكان شعرهما قريبا من الأسلوب الذى يصطنعه الشعب وملئ شعرهما بالمعانى الشعبية أيضا بخلاف شعر المتنبى والمعرى الذى اضطر الناس إلى أن يتكلفوا ألوانا من الجهد للوصول إلى فهمه وتذوقه بل صار شعرهما وقفا على الطبقة المثقفة الذين أعجبوا بالمعانى والآراء التى أتى بهما الشاعران الكبيران . بجانب ما فى شعرهما من قوة الشاعرية وشدة العاطفة واتساع الخيال .

كانت هذه الثقافة التى انتشرت فى القرنين الرابع والخامس من العوامل التى أثرت أيضا فى فن المؤيد الشعرى كما أثر فى فنه تدمبه بالمذهب الفاطمى فأنت تستطيع أن تدرك فى سهولة ويسر ما فى شعر المؤيد من الاتجاهات الفلسفية والخلافات الدينية التى كانت منتشرة شائعة فى عصره فلم يستطع المؤيد أن يقرض الشعر دون أن يلم بهذه الألوان من الثقافة وأن يبسطها فى نظمه وتحمل فى ذلك مشقة الصنعة فكلف فنه حمل ما لا طاقة له به وأخضع القصيد لرأيه وعقله فأتت بعض قصائد ديوانه نظما .

لم يرد المؤيد بهذا النظم إلا التعليم . فكما كان أبان بن عبد الحميد اللاحقى معلما لأبناء البرامكة ونظم لهم كتاب كليله ودمنة ليقربه إليهم . ونظم بشر بن المعتمر قصيدة طويلة أودعها آراءه فى الاعتزال ، ونظم الناشئ الأكبر كثيرا من القصائد فى النحو والعروض والاعتزال . كذلك نظم المؤيد عقائد الفاطميين ليقربها إلى نفوس الناس وإلى عقولهم أيضا لأنه كان معلما قبل كل شيء ، ويكاد أسلوبه فى هذه القصائد التعليمية أن يكون نثرا لولا القافية ووزن الشعر مع سهولة فى اللفظ . فلولا المصطلحات الفاطمية والتأويل الباطنى التى ملأ المؤيد بها نظمه لكان نظمه أقرب إلى كتابة المترفين الذين ألفوا النعومة فى الحياة واليسر فى كل شيء فاختاروا من الألفاظ أسهلها وأرقها وقعا على الأذن ، وكذلك كانت ألفاظ المؤيد لينة سهلة رقيقة . بجانب ذلك كان المؤيد داعية لمذهبه وكان يحب أن ينشر دعوته بين الناس وأن يعلم أتباعه من أمر مذهب كل شيء وفى الوقت نفسه كان يكره أن يعرف الناس من أمر مذهب كل شيء ولذلك احتاط المؤيد فى نظمه فلم يظهر العقائد كلها

في هذا النظم، واتخذ التقيّة مذهباً له يصون بها أسرار المذهب، فاصنطع المصطلحات الفاطمية التي لا يفهمها كل الناس ودار حول المعاني حتى لا توضح، وأشار إلى الآراء التي يجب أن تظل سرا مكتوما دون أن يبين حقيقتها، وأسلوبه في ذلك قد انصرف بعض الشيء إلى مذهب بعض الفلاسفة فهو يعرض المسألة أو الموضوع ثم يحاول ويجادل فيه، ويشكك في آراء المذاهب المختلفة ويتكلف في ذلك المصطلحات الخاصة بالفاطميين أو بالفلاسفة والمتكلمين. وكثيرة مناظراته مع غيره أثر في نظمه إذ اضطر إلى أن يتخذ أسلوب أهل المناظرة والجدل ذلك الأسلوب الذي يشكك في آراء الخصوم ويدافع عن رأيه. وهنا نقف وقفة قصيرة لنرى الفرق بين المؤيد الذي نظم عقائد الفاطميين وبين شاعرين آخرين مدحا أئمة الفاطميين بالمصطلحات الفاطمية، هذان الشاعران هما ابن هانئ الأندلسي والأمير تميم بن المعز لدين الله الفاطمي. اشترك المؤيد وابن هانئ وتمام بن المعز في ناحية واحدة هي تأثرهم جميعاً بالعقيدة الفاطمية وظهر هذا الأثر واضحاً جلياً في شعرهم. أما ابن هانئ فقد شهد أوائل أيام الدولة الفاطمية في المغرب. فاتصل برابع الخلفاء الفاطميين - في عهد الظهور - بعد أن عرف أمويو الأندلس تشييعه فاضطر ابن هانئ إلى الفرار من الأندلس وإلى أن يلحق بالإمام الفاطمي بالمغرب ومدح الإمام وصار شاعره، وهو على هذا الوجه يشبه المؤيد الذي نغم منه العباسيون في المشرق لتشييعه فاضطر إلى الفرار منهم إلى الإمام الفاطمي بمصر. فكلا الشاعرين اضطهد في بلده والتجأ إلى الإمام محتفياً به مادحاً إياه ولكن ابن هانئ لم يكن داعياً أو معلماً من معلمي مذهبه. فقد غلبت عليه صنعة الشعر وإنشاده فكان كغيره من الشعراء المتكسبين الذين يصنعون الشعر ويجهدون أنفسهم في تنميته وزخرفته ثم يعرضون شعرهم على الملوك والأمراء وكبار رجال الدولة ليأخذوا منحهم وعطاياهم. فابن هانئ مدح الإمام المعز كما مدح القواد والأمراء متكسباً بشعره، بخلاف المؤيد الذي لم يمدح إلا الإمام فقط ولم يكتسب بشعره بل دفعه مذهبه الديني إلى أن يمدح الإمام دون غيره. وابن هانئ كان كغيره من الشعراء أكثر مدحه للإمام كان بالجود والكرم والشجاعة وقوة البأس، إلى غير ذلك من الصفات التي عرفت بين الشعراء المتكسبين فكان يمدح المعز بقوله مثلاً:

في الغيث شبه من نذاك كأنما مسح على الأنواء منك يمين
أما الغنى فهو الذي أوليتنا فكأن جودك بالجلود رهين

وديوان ابن هانئ مملوء بمثل تلك المعانى التي كان الشعراء يكثرّون من ترديدها لاستدرار العطاء والنوال. أما المؤيد فلم يذكر مثل هذه المعانى إلا قليلا جدا لأنه لم يكن يطمع فى عطاء أو نوال. ويخيل إلى أن المعز لم يرد بكثرة عطائه لابن هانئ ولم يصدق عليه هذه الأموال التي حدثنا عنها المؤرخون إلا كي يشيد ابن هانئ بملك المعز وأن يتخذ المعز من الشاعر لسانا يدافع به عن ملكه ومذهبه.

وبجانب هذه الصفقات العمّة - إن صح هذا التعبير - التي مدح ابن هانئ بها المعز نجده قد مدحه أيضا ببعض الصفات الدينية التي خلعتها الفاطميون على أئمتهم فقد سمى المعز «وصى الأوصياء».

تؤم وصى الأوصياء ودونه صدور القنا والمرهفات البواتك

نعتة بهذه الصفة مبالغة فى تعظيمه بينما المؤيد لم يلقب إمامه بالوصى محتفظا بالوصاية لعلى بن أبى طالب دون غيره من أبنائه الذين كانوا أئمة فقط، ولهذا قال المؤيد للإمام إنه «ابن الوصى».

بنو وصى سل روح الكفر من أحشائه بصارميه حين سل

وقوله :

وابن الوصى المرتضى ويمينه وحسامه يوم الوغى وسنانسه

فكأن ابن هانئ ذهب به مذهبه الشعري فى المبالغة إلى أن يضيف إلى الإمام صفات ليست له. وكذلك قول ابن هانئ إن المعز هو الصمد فى قوله :

رأى أن سيسمى مالك الأرض كلها فلما رآه قال ذا الصمد الوتر

وأرجح أنه لم يأت بلفظ الوتر إلا للقفافية ولو لم تكن القافية لأتى بلفظ القرآن «الأحد الصمد» وكذلك وصفه للإمام بصفات الله تعالى التي وصف بها نفسه فى القرآن الكريم كقوله :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

قد يكون لابن هانئ بعض الأعذار فى أنه مدح الإمام بمثل هذه الصفات، فقد ذكرنا كيف نفى الفاطميون هذه الصفات عن الله تعالى وقالوا إنها صفات المبدع الأول الذى هو

ممثل الإمام ولهذا مدح ابن هانئ إمامه بصفات المبدع الأول الباطنية . وكذلك فعل المؤيد أيضا في شعره ، ولكن المؤيد كان حريصا على أن لا يذهب الناس في تكفيره ما ذهبوا في ابن هانئ كما كان حريصا على ألا يتهم الناس مذهبه إذا سمعوا مثل هذا القول قبل أن يدركوا تأويله . ولذلك لم يأت المؤيد في ديوانه بوصف الإمام باسم من أسماء الله كما فعل ابن هانئ بل كان يصف إمامه بصفات العقل الأول التي لا يستطيع أن يفهمها على حقيقتها إلا الفاطميون وإذا قرأها غير الفاطميين لا يجدون في قوله ما يدعو إلى ريبه بما رمى به ابن هانئ . فمن هذه الناحية ظهرت حكمة المؤيد وبعد نظره فقد جمع بين ما أراده من مدح إمامه وبين البعد عن إثارة الظنون والشبهات حوله وحول مذهبه كتلك التي أثارها ابن هانئ ، فمثلا أراد ابن هانئ أن يذكر أن الإمام خلق من نور الله فتورط في ذلك وقال :

وما كنه هذا النور نور جبينه ولكن نور الله فيه مشارك

تورط في هذا المدح لأنه أشرك الإمام بالله إذ جعل الإمام يشارك الله في ذلك النور حتى إذا كان ابن هانئ أراد أن الإمام له حظ ونصيب من نور الله فهو لم يوفق في ذلك لأنه أتى بلفظ «مشارك» مما يجعل المعنى مشتبهًا. أما المؤيد فأراد أن يمدح إمامه بنفس المعنى الذي قصد إليه ابن هانئ فقال صراحة :

من نور ربي خلقوا طابوا وطاب الخلق

فوفق في ذلك أكثر من ابن هانئ . كذلك نستطيع أن نقول عن كل المعاني الفاطمية التي ذكرها ابن هانئ في ديوانه . فقد ذكر ابن هانئ كثيرا من عقائد الفاطميين كالتأويل وأصحابه ووجوب ستره . وضرورة وجود الإمام في كل عصر . وأن الدنيا خلقت للإمام كما خلق الجسم للنفس وأنه معصوم . إلى غير ذلك من الصفات الكثيرة التي نجدتها متفرقة في شعره . ومع ذلك كان ابن هانئ يختلف عن المؤيد في نظمه للعقائد فابن هانئ كما قلت كان شاعرا قبل كل شيء ولم يبسط العقائد كما بسطها المؤيد . ولم يجادل المذاهب الأخرى بحجة المنطق كما جادلها المؤيد . ولم يستطع ابن هانئ أن يتغلغل في أسرار الدعوة ويطلع عليها وعلى دقائقها كما اطلع المؤيد لأن ابن هانئ كان كل همه أن يضمن شعره بعض المصطلحات الفاطمية حتى تعلق مرتبته ومكانته عند المعز ، والمؤيد كان معلما قبل

كل شيء قصد نظم العقائد للدعوة والتعليم بخلاف ابن هانئ الذى ذكر هذه العقائد فى شعره لينتفع بأموال الإمام، فبينما كان المؤيد فى أكثر قصائده يطنب فى ذكر العقائد حتى كان يلهيه ذلك عن ذكر الإمام كان ابن هانئ يتفنن فى مدح الإمام ويحاول أن يجد الألفاظ التى يمدح بها الإمام. فكثيرا ما تمر بأبيات متتالية عديدة ليس بها شيء من المعانى الباطنية بل نجد بعض قصائد لم يذكر ابن هانئ فيها أى معنى من المعانى الباطنية بل لا تظهر هذه المعانى إلا بقدر ولا سيما فى القصائد التى مدح فيها المعز أو يحيى بن على ابن حمدون الذى وصفه ابن هانئ بالدعوة، أما عند المؤيد فلا نجد قصيدة من قصائده لم يضمنها المصطلحات والعلوم الباطنية.

وبينما غلب أسلوب الشاعر الصانع على ابن هانئ نجد المؤيد قد غلب عليه أسلوب العالم ومع ذلك فالمؤيد كان يصطنع الألفاظ السهلة القريبة إلى السمع وإلى الذوق بخلاف ابن هانئ الذى كان يعتمد الإكثار من الغريب واستعمال الألفاظ الضخمة التى لا تتفق مع ما كان عليه شعر القرن الرابع من سهولة ولين.

أما تميم بن المعز فهو كما نعلم من بيت الخلافة الفاطمية، كان أبوه إماما من أئمتهم وكان أخا لإمام من أئمتهم، بل كانت الإمامة ستؤول إليه بدل أخيه العزيز بالله، لولم ينص المعز على أن يليها العزيز^(١) فلم يهتم الأمير تميم بالخلافة ولم يقيم وزنا للملك، وتفرغ إلى ما كان يتفرغ إليه الأمراء الزاهدون فى الملك فعكف على اللهو والمجون وإنشاد الشعر. وأكثر فى شعره من الحديث عن اللهو والمجون ووصف الشراب والقصف. وأولع بوصف الطبيعة وبجمالها، أما المعانى الباطنية والعقائد الفاطمية فكان يلم بها إماما يسيرا عندما كان يمدح أخاه العزيز ولكنه لم يكثر منها كما أكثر ابن هانئ والمؤيد ولم يذكر المعانى الباطنية الخالصة التى أتى بها ابن هانئ والمؤيد، ليس معنى ذلك أن الأمير الشاعر لم يكن على علم بالعلوم الباطنية والمعتقدات الفاطمية بل كان يستطيع أن يأتى منها بما يعجز عنه غيره من الشعراء والعلماء ولكنه لم يشأ أن يكون كغيره من الشعراء المتكسبين الذين كانوا يذكرون الآراء الفاطمية تقريبا بها إلى الأئمة، فلذلك مدح أخاه بالمعنى المألوفة التى كان يرددتها الشعراء كما مدحه ومدح نفسه بأنه من نسل النبى والوصى والبتول:

فيابن الوصى ويابن البتول ويابن نبى الهدى المصطفى

(١) جاء فى سيرة الأستاذ جوزر أن الأمير تميم كان أكبر سنا من العزيز وأن الناس كانوا يظنون أن نصر الإمامة له ولكن المعز نصر على العزيز لما عرف عن تميم من مجون وعبث وبعد عن الأخلاق التى يجب أن يتحلّى بها الإمام.

ويابن المشاعر والسمروتين ويابن الحطيم ويابن الصفا
لك الشرف الهاشمي الذي يقصر عنه علا من علا

كما أكثر من القول بأن طاعة الإمام واجبة. وأن الإمام حجة الله في عبادته، ومع ذلك فتميم لم يجعل العقائد أصلا في مدحه. ولم يرتق بالمعاني الفاطمية إلى دقائقها وأسرارها كما فعل المؤيد. فمن السهل اليسير أن يمدح كل علوى بالقصائد التي أنشدها تميم في أخيه العزيز. بينما لا نستطيع أن نمدح بقصائد ابن هانئ والمؤيد إلا أحد أئمة الفاطميين، ونهج الأمير تميم في شعره منهج القدماء الذين كانوا يبدأون قصائدهم بالغزل والخمر إلى غير ذلك من المقدمات التي اعتادها الشعراء، وكان يطيل في هذه المقدمات تطويلا يبعده عن غرضه من القصيدة حتى أخذ عليه المؤيد ذلك كما أخذ عليه مدحه للعزيز بالحسن والجمال، فقد مدح الأمير تميم أخاه بقصيدة نونية مطلعها:

أَسْرَبُ مَهَاءَ عَنِّ أَمْ سَرَبَ جَنَّةَ حَكَيْتَنَّهُنَّ وَتَسْتَنُّ هُنَّهٗ

(١) قصيدة الأمير تميم كما جاءت في ديوانه المخطوط بليدن والنسخة الخطية التي بمكتبي ومقارنتها بما في

دمية القصر ص ٣٨:

أَسْرَبُ مَهَاءَ عَنِّ أَمْ سَرَبَ جَنَّةَ	حَكَيْتَنَّهُنَّ وَتَسْتَنُّ هُنَّهٗ
أَنْتَنَ أَنْجَمَ ذَا الْجَوِّ أَمْ	بَرُوجَ النَّجُومِ جَلَابِيْبِكُنَّ
فَضَحْتَنَ بِالْحَسَنِ أَدَمَ الظُّلْمَا	وَعَبْتَنَ فِيهِ الْبَاءَ كُنَّهٗ
مَ أَرْغَيْدَا سَوَاكِنَ مَسْنِ	فَأَشْبِيهِنَ مِنْ لَيْنِهِنَّ الْأَعْنَهٗ
عَصَوْنَ تَقْسَمْنَ شَمْسَ الضُّحَى	وَكُثْبَانَ خَبْتِ وَصَبْغِ الدَّجْنَهٗ
حَمَلْنَ مَحَا جَرَّ عَيْنِ الْمَهَا	وَأَيْدِيْنَ أَلْحَاظِ اظْلَانِهِنَّ
فِي مَا أَعْيَذُ الْفَاطِمِيْنَ	وَيَا مَا أَمِيلُحِ اَلْحَاظِهِنَّ
إِذَا رَمَنَ ظَلَمْنَا فِلسْطَانِهِنَّ	عَلَيْنَا مَلَا حَةَ أَحْدَاقِهِنَّ
بَرَزْنَ لَنَا عَاطِرَاتِ الْجِيُوبِ	بِسْفَحِ الْكُثَيْبِ فَوَادِي بُونَهٗ
فَعَطَّرْنَ مِنْ طَيِّبِيْنَ النَّسِيْمِ	وَأَيْدِيْنَ مِنْ لَوْعَتِي الْمُسْتَكْنَهٗ
وَلَمَّا سَفَرْنَ صَبَغْنَ الضُّحَى	بِمَاءِ الْخُدُودِ وَتَوْرِيْدِهِنَّ
فَلِلَّهِ هَاتَا غَدَاةٌ انْقَضَتْ	بِطَاعَتِنَا وَبِعَصِيَانِهِنَّ
وَصَهْبَاءَ تَغْدُو لَشْرَابِهَا	إِذَا ابْتَكْرُوهَا مِنْ الِهْمِ جَنَهٗ
تَطُوفُ عَلَيْنَا بِأَقْدَاحِهَا	حَسَانَ حَكْتَهِنَّ فِي بَشْرَهِنَّ
نَوَاعِمَ لَا يَسْتَطَعْنَ النَّهْوُضَ	إِذَا قَمْنَ مِنْ ثَقْلِ أَرْدَاقِهِنَّ
حَسَنَ كَحَسَنِ لِيَالِي الْعَزِيْزِ	وَجَنْنَ بِبِهْجَةِ أَيَامِهِنَّ
إِمَامٍ يَضُنُّ عَلَيَّ عَرْضَهٗ	وَلَا يَعْتَرِيْهِ عَلَيَّ الْمَالُ ضَنْهٗ
فَسَلَّ هَلَّ غَدَتْ قَطُّ أَمْوَالَهٗ	وَأَمْسِيْنَ مِنْ جُودِهٖ مَطْمَئِنَهٗ
وَهَلَّ أَبْصَرَتْ قَطُّ أَرْمَاحَهٗ	عِيُونَ الْوَرَى غَيْرَ حَمْرِ الْأَسْنَهٗ

وعارضة المؤيد في القصيدة الثانية والعشرين وختم هذه القصيدة بأنها جواب قصيدة الأمير تميم التي بدأها بالغزل وبالحديث عن الخمر كعادته حتى بلغ حديثه عن ذلك نحو نصف القصيدة بينما بدأ المؤيد قصيدته بمدح الإمام مباشرة. وأكثر المعاني التي ذكرها تميم في قصيدته أخذها المؤيد ودار حولها. وردد المؤيد في عدة أبيات المعنى الذي ذكره تميم في بيت واحد من ذلك قول تميم:

كلا راحتك ندى أو ردى كأنك للناس نار وجنة

فأتى المؤيد بنفس المعنى ولكنه أراد أن يفصله ويبين لمن تكون النار ولمن تكون الجنة فقال:

إمام هو النار للكاشحين كما أنه للموالين جنة

ثم نجد المؤيد بعد أن قال ذلك المعنى تركه إلى غيره ثم عاد إليه مرة أخرى فذكر في بيتين حال معادى الإمام وما سيلقونه في النار كأنه قاصر يعظ الناس ويخيفهم بذلك العذاب إن لم يتبعوا الإمام.

ومعنى آخر أخذه المؤيد في هذه القصيدة من تميم وأخذه تميم من أبي نواس قوله:

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتهابك النطف التي لم تخلق

ولكن كان الأمير تميم أقل مبالغة من أبي نواس فقد جعل الأجنة في بطون الأمهات هي التي تخاف من الإمام.

وأَمْضِيَتْ عَزْمَكَ حَتَّى أَخَفَّتْ بِهِ فِي بَطُونِ النِّسَاءِ الْأَجْنَةَ

سحائب كفيه بنهيلة	عنيننا بمعروفه مرجحنا
معاني برار غشون النجوم	ونلن من المجد ما لم ينلنه
كلا راحتك ندى أوردى	كأنك للناس نار وجنه
إذا قال اتبعه بالفعال	وإن جاد لم يتبع الجود منه
فلولاك لم يغد فينا الهدى	منيرا ولم يصبح العفو سنه
منعت الخلافة منع الأسود	إذا ما غضبن لأشباههنه
وأَمْضِيَتْ عَزْمَكَ حَتَّى أَخَفَّتْ	به في بطون النساء الأجنه
يليق بك الملك حسنا كما	تليق المعالي بأربابهنه
وانسى وإن كنت نجلى المعز	لعبدك والحق ما إن أكنه
يرى الخير من أضر الخير فيك	وجوزى بالشر من قد أكنه

أما المؤيد فقد أشفق على النطف أو الأجنة من بطش الإمام وعزمه . وعز عليه أن يقول
إن النطف أو الأجنة تخاف بل لم يعجبه أن الأجنة تخشى شيئاً . ولذا كان رءوفاً بالأجنة
فحوّرها المعنى فقال إن الأجنة تعترف بفضل الإمام وبأياديه عليها :

إمام يعبر عماله من الفضل والمآثرات الأجنة

وهكذا أجاب المؤيد في قصيدته على قصيدة الأمير تميم فدار حول معانيها حيناً .
وحوّرها حيناً آخر .

الفصل الثانى

شعر المؤيد

بجانب هذه الصنعة التى تظهر فى نظم المؤيد وهذا الجهد الذى كلف نفسه مشقة فى نظم عقائد الفاطميين ورده على المذاهب المختلفة. نجد المؤيد أحيانا قد أرسل نفسه على طبيعتها فحدثنا عواطفه - لا عقله - وحاطبنا شعوره وإحساسه - لا علمه -، فأتى ببعض أبيات نستطيع أن نسميها شعراً لأنها صادرة عن طبيعة الشاعر وإلهامه. ونحن نقرؤها فنحس بإحساس الشاعر نفسه ومشاعرنا تشارك الشاعر فى تأثيره فنرثى له كما رثى نفسه. فى مثل هذه الأبيات فقط التى يتحدث الشاعر فيها عن نفسه يظهر فن المؤيد الشعرى واضحاً جلياً، فقد ترك نفسه على سجيتها وشعر وأحس، وأنشد شعراً فيما شعر وأحس، ولم يتكلف فى هذا الشعر العناء الذى لقيه فى النظم. فنحن نلمس فى ديوان المؤيد لونيين من الفن: أولاً النظم أو الشعر التعليمى. ثم فن الشعر الخالص الممزوج بالزينة البديعية. وإذن كان للمؤيد شخصيتان، شخصية الناظم الذى أراد أن يودع علمه ومذهبه فى قالب الشعر فأخرج لنا نظماً لا غناء فيه من الناحية الفنية. وشخصية الشاعر الذى أراد أن يودع عواطفه وإحساسه وشعوره فى شعره. فديوان المؤيد الذى ننشره الآن مزيج بين إنتاج دراسته الفلسفية والدينية وعقله الفلسفى ثم إنتاج خياله الشعرى، ومن المسلم به أنه من الصعب التوفيق بين الخيال والعلم، ولذا تكلف المؤيد مشقة فى سبيل التوفيق بين الخيال والعلم. ولذا تكلف المؤيد مشقة فى سبيل التوفيق بينهما فأنتج عقله هذا النظم. وأنتج خياله هذه الأشعار التى جعلها فى كثير من القصائد مقدمة لإنتاجه العلقى.

أول ما نلمس من شعر المؤيد هو أن المؤيد كان ذاتياً كثير التحدث عن نفسه حتى يخيل إلينا أنه لم يفكر إلا فى نفسه، وأنه كان منصرفاً عن كل شيء حوله وكل شيء أحاط به فلم يأبه بالطبيعة فلم يصف البادية التى قطعها أثناء فراره من شيراز وسفره إلى مصر أو فى سفره من مصر إلى العراق كعادة الشعراء الذين وصفوا رحلاتهم. فأبو نواس والمتنبى وصفا رحيلهما إلى مصر. ولكن المؤيد وصف نفسه فقط أثناء الرحيل. ولم يصف المؤيد المتنزهات واليساتين التى كانت بمصر كما وصفها الأمير تميم وأبو العباس المصرى وابن

حيدرة العقيلي وغيرهم من شعراء الفاطميين . وإنما صرف المؤيد عن ذلك كله وجعل كل همه ينصرف إلى نفسه فصور لنا شيئاً من حياته الخاصة وشعوره نحو هذه الحياة التي أرغم عليها واضطر إلى أن يحيها . وهو في مدحه للإمام أو لأهل البيت لا ينسى نفسه أيضاً فهو يذكر نفسه دائماً معهم يعدد ما آثره وما قام به أباًؤه في سبيل الدعوة، ويختم قصائده بذكر اسمه كعادة شعراء الفرس . فشعر المؤيد إذن شعر شخصي يمثل الشاعر العاطفي الذي ابتلى بمحن وآلام فجرت على لسانه بالشعر . فهذه الأبيات الكثيرة التي تتحدث عن الشقاء الذي أحاط به والآلام التي منى بها وتقلبات الدهر به تشعر القارئ أنه أمام رجل بائس حقاً امتلأ قلبه بالحزن وتقاسمته الهموم فيشفق القارئ على الشاعر ويتألم لما حل به ، والمؤيد لا يحدثنا عن هذه المحن والآلام بعقله الفلسفي أو بعلمه الغزير بل إن عاطفته صبغت شعره بصبغة شعوره بالآلام وذهب به خياله في تصوير آلامه إلى درجة أبعدته عن الحقيقة الواقعة بل غلا في التعبير غلوا كبيراً . انظر إلى قوله :

قد كنت أفترس الأسود بفارس والآن تنهض لافتراسي الشاء

انظر إليه وقد ارتفع به خياله فوصف نفسه في الشطر الأول بالشجاعة والإقدام حتى أنه كان يفترس الوحوش الضارية ولم يشأ الشاعر أن يقول إنه كان يصيد الأسود بل اختار لفظ افترس ليؤدي إلى معنى أشد فتكا من الصيد . وفي الشطر الثاني غلا في وصف يؤسه وضعفه واضمحلال أمره حتى إن الشاة وهي من أضعف الحيوانات الأليفة تستطيع بسهولة أن تفترسه . ثم انظر إلى قوله :

فالطير إن طار صرت مرتجفا والطيء إن طاف أنزوى ألما

فهو هنا يصور لنا نفسه المرتجفة المضطربة التي تخاف من كل شيء وتضطرب لكل شيء فإن حوم الطير حوله انتفض فزعا وخوفاً وامتلاً رعباً ، وإن ألم طييء أو مر به خيال فزع وجزع وهذا لا شك غلو من المؤيد في وصف حاله وما هو فيه من يؤس وشقاء . كان المؤيد منغصاً في حياته كما حدثنا بذلك في شعره . وأكثر من ترديد ما فعل به الدهر وطبيعي أن عقله وتعمقه في دراسة المذاهب المختلفة ليست السبب الذي من أجله كان منغصاً في حياته . فهو لم يكن شاكاً في الأديان ولم يكن شاكاً في أمر النفس . بعد الموت بل كان مطمئناً أشد الاطمئنان إلى مذهبه الذي اعتنقه ، وإلى أن نفسه خالدة

غير فانية بعد الموت وأن جسده البالى هو الذى سيفنى . فلم يظهر لنا فى شعر المؤيد هذه الأسئلة التى كان أبو العلاء المعرى يسائل نفسه عنها ويكثر من التفكير فيها والحديث عنها . ولم يكن لعقله أو لفلسفته أثر كبير فى شكواه التى بثها شعره . وفى حزنه الذى لزمه أكثر أيام حياته ، إنما الذى كان ينغص على المؤيد حياته هو الوسط الذى عاش فيه . والبيئة التى أحاطت به . بل ظروف حياته نفسها هى التى سببت آلامه . وكانت هذه الآلام مصدرا لشعر المؤيد الرقيق . فقيام أهل السنة ضده وسعيهم إلى الإيقاع به والنيل منه . وقيام السلطان العباسى ضده . وعدم وجود نصير له أو مدافع عنه فى بلاده ، حتى اضطر إلى الفرار من بلده . كل ذلك سبب للمؤيد آلاما شديدة ، ثم نظر إلى نفسه بعد وفوده على مصر فوجد نفسه حرا ولكنه فى أسر . طليقا ولكنه فى قيود . كان يخيل إليه أنه يستطيع أن يفعل ما يريد ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا ولا أن يتحرك خطوة ، وتذكر له أهل شيعته وعملوا على حرمانه مما هو أهل له وما كانت تصبو إليه نفسه . كل ذلك كان له أثر كبير فى نفس المؤيد وكل ذلك أوحى إلى المؤيد أن ينشد هذه الأشعار التى نراها فى ديوانه ويخيل إلى أن المؤيد كان سريع التأثر والانفعال ولكنه كان يضطر أحيانا إلى أن يضبط نفسه فكان يصطنع الحلم فى الوقت الذى كان يتكاثر حوله الأعداء كما فعل فى مناظرته مع العلوى أمام أبى كاليجار وكما فعل فى محاوراته مع رؤساء العرب فى مؤامرة البساسيرى . وكان سريع التأثر والانفعال إذا خلا إلى نفسه أو وجد نفسه مع قوم اعتقد أنهم أقل منه ولكنهم أصبحوا سادة بحكم الظروف التى ساعدتهم ومثل ذلك معاملته مع الوزراء المصريين ، كل ذلك كان سبب شكوى المؤيد ومصدر آلامه وبكائه . وإذن فهو سخط على الحياة وطلب الموت والراحة من هذه الحياة فذلك من ناحيتين إحداهما دينية خالصة دان بها مذهبه واعتقدها كل أبناء شيعته الذين كانوا يرحبون بالموت وينشدون الخلاص من الحياة الدنيا ، لأن الحياة هى سجن المؤمن وجنة الكافر وأن النفس وهى نور روحانى تكون فى الحياة رهينة محبس الجسم البالى الترابى بينما تنتقل بعد الموت إلى عالمها الروحانى بين الأرواح فى عالم القدس فتصبح مؤثرة فى الأجرام بعد أن كانت متأثرة بالأجرام ولهذا نرى المؤيد قد قال مثلا :

ريحانتي الموت وباب أمنى إن كنت أرجو مخلصى من سجنى

أما الناحية الثانية فهى أنه كان يريد أن يتخلص من حياته التى سببت له الآلام وجلبت عليه المصائب المختلفة ، فكان يتغنى فى شعره بطلب الموت ليريح نفسه حتى تبلغ مرتبتها فى العالم العلوى ويستريح هو من آلامه التى كان يشعر بها ويقاسى أهوالها .

على أنه يخيل إلى أن هذه المصائب التي منى بها المؤيد والتي كانت مصدرا لفن المؤيد الشعري إنما توالى على المؤيد من المؤيد نفسه. ذلك أن المؤيد شقى زمنا طويلا بعله الطمع والطموح إلى مرتبة الدعوة التي كانت تفر منه كلما اقترب منها، وقد تكون علة طمعه هذه نتيجة لتعاليه على معاصريه وغروره بنفسه ومنه على الإمام وعلى المذهب الفاطمي بخدماته في سبيل نشر الدعوة. فقد كان يعتقد أنه أجدر معاصريه جميعا بمنصب داعي الدعوة، وأنه أعلاهم كعبا في خدمة إمامه ومذهبه. وذهب به غروره بنفسه إلى التكبر على الوزراء والقضاة والدعاة، وكان هؤلاء جميعا يعرفون أن المؤيد أحقهم جميعا بمنصب الدعوة ويعترفون فيما بينهم وبين أنفسهم أنه جاهد في سبيل المذهب أصدق الجهاد. لذلك كله كانوا يخشون بأسه ويخافون على مراكزهم منه فكانوا يدارونه حيناً ويظهرون الموحدة عليه حيناً آخر. يقربونه طورا ويضطهدونه طورا آخر. وكان المؤيد في هذه الأطوار يظهر العجب بنفسه ويتحدث عن علمه وجهاده حديث رجل مغرور مفتون بنفسه. فكان ذلك الغرور من أشد أسباب شقائه. ولو ترك المؤيد غروره وكبريائه لاستراح من العناء الذى قاساه ومن البكاء الذى اشتفى به ولأراح من كان حوله من ذوى السلطان ولعاش منعما فى بلاده. ويظهر فى شعره وفى سيرته أيضا ذلك الغرور حتى ذهب به ذلك إلى أنه كان يفاخر بنفسه وهو يشكو ويبكى. ويعدد مناقب نفسه ويمن على الإمام فى الوقت الذى يظهر فيه استكانة وضعفا.

ومن الغريب أن آلام المؤيد لم تذهب به إلى أن ينقد الناس فى أحوالهم وطبائعهم. فلم يحدثنا عن الناس كما حدثنا أبو العلاء فى لزومياته. وكل الذى ذكره المؤيد فى نقد الناس كان عن عقائدهم ومذاهبهم الدينية ونقد هذه العقائد والمذاهب. أما أحوال الناس الاجتماعية وضروب معيشتهم فلم يعرض لها المؤيد، كذلك لم يهيج المؤيد شخصا بعينه إلا خلفاء أهل السنة وابن المسلمة وهجاهم لأنهم أعداء أئمتة. أما عداوته لابن المسلمة فهى قاسية باقية لم يستطع المؤيد أن ينتزعها من قلبه طول حياته. بل عجز موت ابن المسلمة عن محوها. فقد تشفى المؤيد منه وتحديث عن صلب ابن المسلمة على الصارى وقتله على الصورة التى صورتها لنا كتب التاريخ. وحديث المؤيد عن ذلك حديث رجل مسرور فرح لموت خصمه على هذه الصورة مما يدل على أن عداوته لابن المسلمة كانت عنيفة جدا. والمؤيد ذكر ابن المسلمة فى شعره مرارا ملقباً «بابن دمنة» متخذاً هذا اللقب من صفة دمنة

في «كتاب كليلة ودمنة». ولعل قصة ابن المسلمة مع المؤيد في شيراز ثم اضطهاد ابن المسلمة للشيعة عامة حتى أمر بنبش قبر موسى الكاظم على نحو ما حدثنا به المؤرخون وذكره المؤيد في شعره. وسعى ابن المسلمة لدى المعز بن باديس صاحب القيروان لترك الدعاء للمستنصر الفاطمي. كانت هذه كلها سبب هذه العداوة الدفينة في نفس المؤيد حتى امتزجت هذه العداوة بدمه، حتى خيل إليه أن يد ابن المسلمة امتدت إلى كل حادث ضد الفاطميين ولذا تشفى المؤيد في هذا الرجل وأظهر فرحه لموت خصمه وعدوه ولم يتورع أمام الموت عن إظهار هذا الفرح.

من ذلك كله نستطيع أن نقول إن المصدر الأول لفن المؤيد الشعري هو حياة المؤيد ونستطيع أيضا أن نقسم شعر المؤيد إلى أطوار حياته أو إلى البيئات التي عاش فيها المؤيد. فحياته كما رأينا ثلاثة أطوار أولها حياته في فارس. وثانيها حياته أثناء فراره، وثالثها حياته في مصر. وقد رأينا كيف اختلفت حياته في كل طور من هذه الأطوار اختلافا بينا، وكذلك اختلف شعره بين هذه الأطوار باختلاف مزاج الشاعر وتقلبه بين الرضى والسخط وبين السعادة والشقاء.

كان في فارس يقيم مستقرا هادئا عزيز الجانب موفور الكرامة يخشاه السلطان والعامه ويحبه أتباعه وعشيرته واعتز هو بشيعته فتوى بهم فلم يخش شيئا. فظهر شعره في هذا الطور صورة لهذه الحياة الرعدة ولشخصيته القوية. فوصف نفسه بالقوة والإقدام حتى بلغ به غلوه إلى أن قال إن الدهر كان يخشى سطوته وجبروته فلم يخضع لسلطان مسيطر، وأنه ناضل أعداءه بالسيف وناضلهم بالنظم وبالنثر فانتصر عليهم. وتحمل المصائب بصدر رحب وقلب قوى ولم يجبن أمام غلبة المتغلبين فدافع عن نفسه وعن عشيرته ومذهبه. فكان شعره في ذلك كله شعر حماسة فيه روح القوة والعزم وفيه الفخر بعلمه وبدينه وبشعره وبخطبه فهو معتز بذلك كله وكرر هذه المعاني:

ويد لم تزل تصول ببأس كم ثنى دونها العنان الخطوب
ولسان في حلبة النظم والنثر بأبكار كل معنى لعوب
وجنان يلقي المنايا كفاحا ويلاقى الضرغام وهو غضوب

فهو في هذه الأبيات وما شاكلها في ديوانه يصف شجاعته وإقدامه ويحدثنا عن نفسه القوية رابطة الجأش التي لا تأبه بالأحداث والخطوب بل تضطر الخطوب إلى الابتعاد عنه خوفا من سطوته وجبروته، ويصور بلاغته في الشعر والنثر، فيصف نفسه شاعرا

يتلاعب بالمعاني الجديدة التي لم يطرقها شاعر قبله. ويصف نفسه خطيباً مفوها يأسر لب السامعين ببيانه. وانظر إليه مرة أخرى وهو يصف نفسه بذلك كله :

جسمى حمول للنوائب كلها لكن لى فى الجسم قلب غضنفر
ما راعنى من صائل صول ولا ضعفت قوى جلدى لبأس مسيطر

فتصور هذا الرجل الذى يتحدى النوائب كلها. وأنه يتحمل المصائب كلها دون ضعف أو تذمر، فهو قوى شجاع كالأسود وهو لذلك لم يجبن أمام أحد ولم يخضع لصاحب سلطان، فهذه الأبيات وأمثالها التى أنشدها فى فارس تصور شخصية المؤيد القوية وتمثل حياة رجل مطمئن إلى نفوذه وقوته.

وفى فارس نجد ناحية أخرى فى فن المؤيد ذلك أنه كان مطمئناً إلى حياته ولم يصب بعد بما ألمه وأثار حزنه وشجونه وكان يشغل أكبر منصب من مناصب الدعوة فى الجزيرة، فقد كان حجة فارس وكبير دعايتها فغلبته طبيعته كمعلم واضطره منصبه الدينى الخطير إلى أن ينظم تعاليم مذهبه. فأكثر المنظومات التى تحدث فيها المؤيد عن عقائد الفاطميين إنما قالها وهو فى فارس. فإذا تصفحنا ديوان المؤيد نجد أن القصيدة الأولى قيلت قبل وفاة الظاهر سنة سبع وعشرين وأربعمائة من الهجرة. فقد ذكر المؤيد نفسه مقروناً بالإمام الظاهر:

نظم ابن موسى وهو عبد الظاهر ذاك الإمام ابن الإمام الطاهر

وكان المؤيد فى ذلك الوقت فى فارس. وكذلك نقول عن القصيدة الرابعة وغير ذلك من القصائد التى أكثر فيها من الحديث عن العقائد فقد أنشدت كلها فى فارس قبل أن يصاب المؤيد بالمحنة. وفى هذه القصائد كلها التى أنشدها فى فارس لم يشر المؤيد إلى بؤسه وشقائه، إنما تغنى دائماً بنفسه ويقومه.

ثم بعد ذلك كله يظهر أثر فارسية المؤيد فى ذكر اسمه فى آخر كل قصيدة وهو ما يسمى فى الأدب الفارسى بالتخلص وهذا الفن وجد فى فارس منذ أول ظهور الشعر الفارسى ونجده عند شعراء الفرس فى القرن الرابع الهجرى وما بعده وأخذه المؤيد عنهم. ولا أكاد أعرف شاعراً من شعراء العربية اتخذ هذا الفن فى شعره قبل المؤيد، فإن صح أن شعراء العربية لم يذكروا أسماءهم فى الشعر إلا فى العصور المتأخرة، فيكون المؤيد أسبق شعراء

العربية إلى نقل هذا الفن من الفارسية إلى العربية. ثم نراه أيضا قد استعمل بعض الألفاظ فارسية كقوله:

إني اعتصمت بحبل آل محمد في الدين والدنيا بشاهنشاه

فكلمة شاهنشاه ليست عربية. وأحيانا كان يستعمل بعض المعاني الفارسية التي لا أذكر أنى وجدت مثيلا لها في الشعر القديم كقوله:

ظهر العدل في محل مام وغدا في ضرائع الأنعام

يقول الشاعر إن عدل الإمام شمل جميع أوليائه وانتشر وعم البلاد حتى إن البهائم قد امتلأت ضرائعها باللبن من كثرة غذائها ووفرة الخصب في البلاد، هذا المعنى لا أكاد أجد له مثيلا في الشعر العربي قبل المؤيد ولكنه كثير جدا في الأدب الفارسي^(١) وإذن ففارس كان لها أثر في تكييف شعر المؤيد وتوجيهه إلى ناحية خاصة هي هذه الناحية التي أشرنا إليها ومع أن المؤيد في شعره لم يحدثنا عن البيئة التي كان يعيش فيها. فإننا نستطيع بسهولة ويسر أن نتعرف على أشعاره التي أنشدها في فارس.

أما الطور الثاني وهو حياته بعد أن ترك فارس وقبل أن يصل مصر فقد ظهر في شعره أنه اختلف تمام الاختلاف عن المؤيد الذي رأيناه في فارس، فهو في هذه المرحلة من حياته رجل خائف يتربص أن يأخذه أعداؤه من كل جانب متحير في أمره لا يدري إلى أي صوب يتجه، دليل في غربته ضعيف بوحدته، شاحب اللون من كثرة آلامه وشقائه، يبكي طول النهار ويأرق بالليل يذكر حياته في فارس بين إخوانه وعشيرته فيندب سوء حظه ويشكو الدهر وتقلباته. وشعره في هذا الطور يمثل الرجل الضعيف الجبان خائر العزيمة الذي لا حول له ولا قوة فلم يجد بدا من الاستغاثة والتضرع. فاستغاث بالإمام وناشده أن يشد أزره ويكشف عنه الضر. ووقف على قبر علي بن أبي طالب بالكوفة مستغيثا به كي ينصره على أعدائه وينتقم له، وأخذ يناجي الله ويتضرع إليه أن يحميه مما أصابه. قال ذلك كله في صور شعرية جميلة تشعر القارئ أنه يستمع إلى أنات رجل بائس امتلا قلبه بالوحدة ووجد نفسه شريدا ضعيفا لا يقابل في طريقه إلا عدوا. ولا يسمع إلا صوت النذير والوعيد، فقد استطاع أن يعبر عن آلامه في الحياة، ونظر إلى الحياة في هذا الطور بمنظار

(١) هكذا أخبرني زميلي الدكتور إبراهيم أمين مدرس اللغة الفارسية بالكلية.

أسود قاتم وأخذ ينتظر الموت مطمئناً إليه مرحباً به . صور لنا ذلك كله في صور شعرية يتلو بعضها بعضاً في ألفاظ سهلة يسيرة وأسلوب ممتع عذب جعلني أقول إن المؤيد في هذا الطور يمثل الشاعر العاطفي حقاً الذي يتحدث عن إلهامه لا عن عقله . ويملى شعره عن وجدانه ويخاطب العواطف ولا أغالى إذا قلت إن أجمل شعره هو ذلك الذى أنشده فى هذا الطور . كان جل هم المؤيد فى ذلك الطور منصرفاً إلى الشقاء الذى أحاط به وفى أعدائه الذين أزعجوه عن دياره ولم يفكر إلا فى نفسه وفيما أصابه وفيما قد يصيبه . وفى حديثه عن تقلبات الدهر وصف عواطفه وأحواله الخاصة .

ومع ذلك صور هذه التقلبات كما صورها غيره من الشعراء . فهو هنا يحاكي غيره من الشعراء السابقين الذين ألمات بهم المصائب وتقلبت بهم الأيام وأحيلك على ما جاء فى ديوان المؤيد من حديث عن الدهر فستجد للمعاني التى قالها المؤيد مثيلاً فى الشعر القديم ، ولكن رُوح المؤيد وعاطفته وفنه تظهر واضحة جلية فى شعره . فقد استطاع بمهارة أن يلبس شعره ثوب الحزن الذى لازمه وأن يجعل شعره صورة تكاد تكون ملموسة لشقائه الذى حل به فكثير جداً من الشعراء وصفوا آلامهم ومتاعب حياتهم وتقلبات الدهر بهم ولكن قليلاً منهم هم الذين استطاعوا أن يأتوا بمثل الصور التى أتى بها المؤيد وبمثل الأسلوب الذى صاغ فيه المؤيد صورته .

أما المؤيد فى مصر أو فى الطور الثالث . فكان يختلف عن المؤيد فى فارس أو المؤيد فى طريقه إلى مصر . فقد قابل مصر فى أول الأمر مقابلة رجل بأئس وجد من يلوذ به . كان ضالاً فوجد هداه . وكان وهو فى فارس شديد الرغبة فى أن يحج إلى إمامه ويحظى بالمثل بين يديه وما هو قد وجد نفسه فى بلد الإمام ومقره لذلك كله كان شديد الأمل فى أن يجد من إمامه ما هو أهل له . وأن يرفع الإمام شأنه ويقربه ويعز جانبه . فظهر شعره فى أول أيامه بمصر شعر رجل جاء يلتمس الخلاص مما حاق به . مطمئناً إلى أنه سينال بغيته وسيعيش كما كان . مطمئناً فى كنف الإمام . فهو من هذه الناحية وما كان يملأ قلبه من الأمل كان كغيره من الشعراء الذين وفدوا على مصر . فأبو نواس فى شعره للخصيب كان قوى الأمل فى أنه سيصيب من الأمير الثروة والغنى فوصف لنا كيف حاولت صاحبتة أن تصده عن الرحيل إلى مصر فلم يأبه بأقوالها وخالفها طمعاً فى المال . بينما حدثنا المؤيد كيف أشارت صاحبتة عليه بالسفر إلى مصر فقبل مشورتها وعمل بها لأن دينه يأمره بزيارة

الإمام، ولأنه لم يجد سوى الإمام ملاذاً يحتمى به. وكذلك كان الأمر مع المتنبي في وفوده على مصر فقد حاول أصحابه أن يصرفوه عنها ولكنه خالفهم فغرب إلى مصر وشرقوا هم إلى العراق ولم يخالف أبو نواس صاحبه والمتنبي وأصدقاؤه إلا لسبب واحد وهو الأمل في الحصول على الأموال الجزيلة وهو أمل يختلف تمام الاختلاف عن أمل المؤيد، الذي لم يقصد إلى مال أو ثروة. كما قصد الشاعران، إنما كان سفره إلى مصر لتخفيف آلامه التي لقيها بعد أن أخرج من دياره ثم دعاه داعي الدين إلى أن يرحل إلى إمامه. ولكنه سرعان ما وجد غير ما كان يطمع فيه إذ انصرف الناس عنه ووجد قلوباً تضم له الحقد والكراهية ولم يجد من المصريين إلا الاضطهاد والنفور منه. مثله في ذلك مثل المتنبي في مصر كلاهما أسرف في الاعتداد بنفسه، وكلاهما غلا في حسن الظن بنفسه وبالناس، وكلاهما انخدع لصاحب الأمر بمصر فخاب فآلهما وضل سعيهما، فحاول كل منهما أن يترك مصر فمنا من ذلك. ولكن المتنبي استطاع أن يهرب من الأمير بينما بقي المؤيد يتقلب في حياته فكان يرتفع حيناً حتى أصبحت له مرتبة الدعوة، ويعزل عنها حيناً آخر ويطلب إلى الخليفة أن يبعد المؤيد عن مصر. كذلك سخط أبو نواس ودعبل الخزاعي على مصر والمصريين كما سخط المتنبي والمؤيد وخرجا من مصر غاضبين هاجين أمراءها وأهلها كما غضب وهجا المتنبي. أما المؤيد فقد غضب أيضاً ولكنه لم يستطع أن يهجو ملك مصر لأن صاحب مصر إمامه. بل أخذ يمين على إمامه في الدفاع عنه وعن آله والدعوة إلى مذهبه وأخذ يشكو قلة إنصافه بعد أن ضحى بما ضحى به في سبيلهم وأخذ يلح على إمامه أن يصرف عنه ما حاق به من ظلم وفساد حال:

إني أتيتك يابن بنت محمد مستعدياً مستنئياً الضراء
أبييت في البلد الأمين مروعا وحماك من صرف الزمان وقاء
أيالني فيك الجفاء مشرقاً وإذا أغرب نحوكم فجفاء

فهو هنا يستعدى الإمام ويرجو حماه ويشكو عدم إنصافه وجفاء الإمام وهذه المعاني نراها كثيرة متفرقة في قصائده التي أنشدها في مصر. أما منه على الإمام وعلى الدعوة فقد أسرف المؤيد في ذكر أثره وأثر آبائه في نشر الدعوة والذل الذي لحقه في سبيل ذلك والشقاء الذي منى به بسبب مذهبه:

فيهم لقيت وفيهم ألقى الأذى وأكابد
سل عن مقامي فارسا من كان ثم يجاهد
من معلمن دين الهدى والنور منه خامد

وإذا نظرنا إلى مننه على إمامه في الدفاع عنه وعن الدعوة على هذه الصورة التي صورها المؤيد في شعره نجد المؤيد قد بعد عن الآداب التي وضعها علماء المذهب الفاطمي نحو أئمتهم. فمن المؤيد على إمامه وشكواه لعدم إنصافه وأن الإمام لم يضعه في المكانة اللائقة به كل هذا لا يتفق مع قول القاضي النعمان «ينبغي أن تراض النفوس للأئمة على المحنة والرضا وعند المنع والعطاء وعند أحوال الشدة وفي حالات الرخاء فإن صنعوا (أى الأئمة) صنع معروف إلى واحد وجب شكرهم عليه ولم ينبغ أن يرى المصنوع به أنه جدير به ولا مستحق إياه ولا أن يستشرف نفسه بعد ذلك إليه^(١)». وقول النعمان أيضا في مكان آخر «وينبغي لمن خاطب الإمام ألا يطرى نفسه ولا يظهر الإعجاب بما فيه ولا ما كان منه^(٢)» فهل تأدب المؤيد بهذه الآداب التي ذكرها النعمان مع تأثر المؤيد بالنعمان في كل الآراء المذهبية؟ أظن أن المؤيد كان ضيق الصدر حين أنشد مثل هذه الأبيات حتى نسي أنه إنما يخاطب إمامه، وأن شدة غضبه وحنقه اضطرت به إلى أن ينسى كل شيء إلا نفسه وأبي ألا يفكر إلا في ماضيه وحاضره، أضف إلى ذلك ناحية الغرور الذي كان يلازمه في كل أطوار حياته حتى جعله يمن على إمامه ومذهبه ويبتعد بعض الشيء عن آداب مخاطبة الأئمة.

ناحية أخرى نراها في شعر المؤيد في مصر ذلك أن المؤيد شاهد وهو في مصر ما كان قد سمعه عن النيل وفيضانه وتمساحه. فذكر ذلك في الشعر فذكر النيل الفائض كنى به عن النعيم الذي وجدته في مصر، وشبهه الإمام بالتمساح فكما أن التمساح يحاول الفتك بكل من يقترب من النيل كأنه يحمي النيل كذلك الإمام يحمي وادى النيل:

وشققت جيب الأرض شقا نحو من وقفت لديه ركائب التأميل
فرايت نيلا فائضا، تمساحه متشمر يحمي حريم النيل

وهنا نلاحظ الفرق بين أبي نواس عندما ذكر النيل والتمساح وبين المؤيد فأبو نواس حذر من ركوب النيل وخوف من تمساح النيل ولذا نراه قد هجا النيل والتمساح بقوله:

أضمرت للنيل هجرانا وتقلية إذ قيل لى إنما التمساح في النيل

(١) الهمة مخلوط ورقة (٦٥)

(٢) الهمة مخلوط ورقة (٦٨).

وكما ذكر أبو نواس فى مصر قصة موسى وفرعون وقال للمصريين أو لأمير مصر «إن عصا موسى بكف خصيب»، كذلك تذكر المؤيد قحط مصر أيام يوسف الصديق فقال عن نفسه إنه أتى مصر ليكشف القحط عنها ولكنه تدارك هذا القول لأنه لم يبلغ بعد درجة يوسف فيشبهه نفسه به إنما دفعه إلى ذلك الغرور بنفسه فتراجع بعد ذلك وقال إن يوسف نفسه أى الإمام فى مصر:

وقمت مطريا فى جسم دين لباسا لا يطريه المطرى
لأكشف قحط مصر - وذلك بدع وهذا يوسف فى أرض مصر

ومن الغريب أيضا أن لا نرى المؤيد قد تأثر بما كان حوله فى مصر سوى ذلك. فلم يذكر شيئا عن الحفلات والمواكب التى ابتدعتها الفاطميون فى مصر والتى كانت تدعو إلى أن يشيد بها رجل خدم الدعوة الفاطمية. بينما نجد شاعرا معاصرا له كان يعتقد نفس المذهب الذى كان يدين به المؤيد أتى مصر فى وقت واحد تقريبا مع المؤيد ووصف مصر وصفا يكاد يكون دقيقا وتحدث فى شعره وفى نثره عما رآه فى مصر ذلك الشاعر هو ناصرى خسرو الفارسى ولا أدرى كيف لم تثر مصر خيال المؤيد حتى أهملها - ويخيل إلى أن المؤيد ترك ذلك كله وشغله عن ذلك التفكير فى نفسه. وأنه لم يكن بالشاعر الذى يتأثر بالطبيعة وجمالها وأن سعة خياله كانت محدودة. حتى إنه عندما أراد أن يتحدث عن قصر الخليفة لم يستطع أن يصف القصر وأبهته وجلاله بل ترك وصف القصر إلى مدح من بالقصر كأن القصر نفسه لم يثر خياله ويشحذ قريحته أو أنه كان متجها إلى مدح الإمام فلم يجد إلا بيتا واحدا ذكر فيه القصر كمقدمة يصل بها إلى مدح الإمام. وعندما ذكر مجلس الدعوة لم يستطع أن يقول أكثر من اليوم الذى يعقد فيه مجلس الدعوة عيد للمؤمنين يجنون فيه ثمار هذه المجالس. مع أنه كان يستطيع أن يرسل شاعريته وخياله إلى مدى أوسع وإلى أفق أبعد مما حدثنا، به ولكن المؤيد كان شاعرا ذاتيا يتحدث عن نفسه ويحسن الحديث عن حاله أكثر مما كان يتحدث عما حوله فقد كان يرى نفسه أهلا للفخر حتى بعد أن ذاق الذل وانتصرت عليه المحن والخطوب وكأنه لم ينشد هذا الشعر إلا ليعزى نفسه فهو لم يحتمل ما احتمل إلا فى سبيل الدعوة وفى سبيل الأئمة وهذه عنده بل عند شيعة الفاطميين نعمة لاتتاح إلا للمخلصين ولذلك كان مطمئنا إلى أن ما لاقاه من المصاعب والآلام هى شفيح له عند الأئمة وعند ربه.

تأثر المؤيد بالقدماء

وهناك ناحية أخرى نراها واضحة جلية في فن المؤيد الشعري تلك هي محاولته محاكاة الشعراء الذين سبقوه، فالمقدمات التي نراها في أوائل القصائد والتي أنشدتها ليهيئ بها الأذهان قبل الوصول إلى غرضه لم يكن فيها إلا مقلدا لغيره من الشعراء القدماء فقد عمد مثلا إلى الغزل في بعض قصائده فشبب وأجاد في التشبيب حتى يخيل إلى القارئ أن المؤيد شاعر من الشعراء الغزليين بل من تلاميذ مدرسة عمر بن أبي ربيعة الذي كان يحاور صديقه في شعره ويتحدث إليها وتتحدث إليه ولكن شتان بين الشاعرين فعمر لم يكن عفيفا بخلاف المؤيد الذي لم نعرف عنه فاحشة ولم يذكر لنا المؤرخون أنه أحب امرأة أو تغزل بامرأة معروفة ولم نعلم أن النساء كن يستهوينه أو أنه كان صاحب لهو وقد حدثنا المؤيد نفسه في شعره بأنه عاش عفيفا طول أيام حياته :

قد شببت منى العذار العفة ما زالت من ميزانها في الكفة
ما شاق قلبي وتر أو زمر ولم تدب في عروقي خمر
عبادتي كل الزمان عادتي ما ملكت يد الهوى مقادتي

فوصف نفسه في هذه الأبيات بأنه رجل صالح متعبد في جميع أطوار حياته لم يذق الخمر ولم يتأثر بسماع غناء أو زمر. ومع ذلك نراه قد بدأ بعض قصائده بالغزل شأنه في ذلك شأن شعراء الجاهلية ومن تبعهم من شعراء العربية وظل هذا سبيل الشعراء حتى أراد شاعر كُبي نواس أن يجدد في شعره وألا يتقيد بمنهج القدماء فتهكم بهم وبغزلهم. ولكن أبا نواس اضطر أيضا إلى أن يترك تجديده وإلى أن يحاكي القدماء وينهج نهجهم عندما كان يمدح الخلفاء أو الأمراء. وجاء المؤيد بعد أبي نواس بثلاثة قرون تقريبا فأبى إلا أن يسلك الطريق القديم وأن يبدأ أكثر قصائده بالغزل كما بدأ القدماء. وأن يذكر حنينه لبلاده كما حنوا. ففي حديث المؤيد عن شيراز وأهله الذين تركهم واضطر إلى أن يعيش بعيدا عنهم كان يترحم على أيامه التي قضاها في بلاده هانئا بين إخوان له يحب بعضهم بعضا ويعطف الواحد على الآخر وكان إخوانه هؤلاء يحملون للمؤيد في نفوسهم أسمى احترام وولاء فبكى لفراقهم وأظهر جزعه لما قد يصيبهم بعده. كما كان يتحدث أيضا عن أهل بلده المتحاسدين المتباغضين الذين سعوا للإيقاع به واضطهاده ولذلك نرى في شعر المؤيد

عاطفتين نحو بلاده، عاطفة البغض والمقت الشديدين أظهرهما عندما تذكر أن أكثر أهل شيراز يدينون بمذهب يخالف مذهبه وأنهم في نزاع دائم مع شيعته :

إن تكن لى شيراز دار ومنها نشأ الجسم لى وليدا وشبا
فحقيق مقتى لها فهى عش لعتيق ولادلهم الرجس نصبا

فحدثنا بهذا الشعر بأنه كان يبغض بلده التى ولد وترعرع فيها وأن غضبه أو بغضه إنما يرجع إلى أن أهالى شيراز يدينون بمذهب أهل السنة فلو لم يذهب أهل شيراز إلى هذا المذهب ما وجد المؤيد سبيلا إلى الغضب من بلده. أما العاطفة الأخرى التى تظهر لنا فى شعره فهى عاطفة حبه لبلاده وحنينه إليها وتغنيه بأيامه فيها وحسرتة على فراقها، وهى عاطفة كما ترى تخالف عاطفته الأولى. وأكثر شعره الذى حدثنا فيه عن بلاده إنما حدثنا فيه عن حنينه وحبه لبلاده وإخوانه وعشيرته فهو على هذا الوجه مقلد للقديما الذين حنوا إلى بلادهم بعد فراقها ووصفوا حنينهم فى أشعار بها لوعة لفراق البلاد ومن بها. على أن القديما اعتادوا أن يتحدثوا عن أوطانهم فى أوائل شعرهم بينما لم يذهب المؤيد مذهبهم فى ذلك بل كان يلم بذكر فارس فى أول القصيدة أو فى وسطها أو فى آخرها، فكأنه لم يتخذ ذكر الحنين إلى بلاده وسيلة فى شعره فقط كالقديما بل كان غاية أيضا.

وجل المعانى التى أتى بها المؤيد فى شعره قديمة معروفة طرقها كثير من الشعراء فتأثر المؤيد بها، ونجد فى ديوانه أثرا واضحا لبعض الشعراء الذين سبقوه. فمثلا نجد المؤيد فى مطلع قصيدته العشرين قد قال :

لقد علمت مصرها والشام و قطر الحجاز وأرض اليمن
وفارس من قبلها والعراق إلى السند عمرانها والدمن
بأنسى سيف لآل النبى صقيل صقلت بماء اللسن

هذا المطلع نفسه تقليد يكاد يكون حرفيا لقول المتنبى فى مقصودته :

لتعلم مصر ومن بالعراق ومن بالعواصم أنى الفتى

ومما لا شك فيه أن المؤيد أخذ قول المتنبى وبنى عليه قصيدته، ولا نستطيع أن نقول إن توارد الخواطر هو الذى دفع المؤيد إلى أن يقول ما قاله المتنبى، فمما لا شك فيه أيضا أن المؤيد قرأ شعر المتنبى وبدلنا على ذلك قول المؤيد عن المتنبى :

فغدوت بالأواء مفصوم العرى من طول ما تعتادنى الأولاء
مترنما دهرى ببیت قاله من ليس ينكر فضله الشعراء
«وشكيتى فقد السقام لأنه قد كان لما كان لى أعضاء»

فقد تمثل المؤيد هنا ببیت من أبيات المتنبي التي مدح بها أبا على هرون بن عبد العزيز الأوراجى وذكر المؤيد أن صاحب هذا البيت سيد الشعراء لأنهم لا يستطيعون أن يجحدوا فضله، ومعنى ذلك أن المؤيد كان يعرف الكثير من شعر المتنبي وكان يشهد للمتنبي بالتفوق في الشعر وحاول أن يقلد المتنبي في بعض أشعاره فإذا هو مرة يُضَمَّن قصيدة من قصائده بيتا للمتنبي وأخرى يأخذ معانيه وألفاظه كما رأينا. وكذلك ضمن المؤيد في إحدى قصائده بيتا من شعر العرجى دون أن يشير إلى أن هذا البيت قديم فلو لم نعلم أن العرجى قال:

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر

لذهبنا إلى أن هذا البيت من قول المؤيد الذى أخذ هذا البيت وأدخله فى شعره دون أن يشير إلى أنه للعرجى ويخيل إلى أن المؤيد قد تمثل أمامه العرجى وهو يقول هذا البيت وذكر المؤيد أن حياة العرجى تتفق فى بعض نواحيها مع حياته، فالعرجى كما نعلم أبلى عن المسلمين فى الحروب بلاء حسنا وأنفق مالا جزيلا فى سبيل نصر المسلمين ومع ذلك لم ينفعه بلاؤه فى الحروب ولم يفده المال الذى أنفقه فلم يأبه به الخليفة الأموى وانتهت به حياته إلى السجن وكذلك المؤيد. فقد أبلى بلاء حسنا فى سبيل الدعوة والأئمة ودافع عن الدعوة وعن الأئمة بلسانه وقلمه ومع ذلك أخفق فى آماله ومطامعه ولم ينفعه بلاؤه ولا دفاعه فتمثل بهذا البيت من شعر العرجى.

وإذا نظرنا إلى قصيدة المؤيد التى قال فيها:

لأنى غريب فؤادى حريب عليه الليالى بليلى تكرر
طريد شريد فريد وحيد فقيد لإلف وديد يبر

نراه متأثرا ولا سيما فى البيت الثانى بأبيات مسلم بن الوليد:

ويحى أنا الطريد ويحى أنا الشريد
ويحى أنا المعنى ويحى أنا الفريد

ويحي أنا الممنى ويحي أنا الوحيد
ويحي أنا المبلى ويحي أنا الفقيد

فهذه الألفاظ التي في شعر مسلم "الطريد، الشريد، الفريد، الوحيد، الفقيد، أخذها المؤيد الواحدة تلو الأخرى على النسق الذي حدثنا به مسلم ونظمها المؤيد في بيته. وقد يطول بنا الأمر لو وقفنا على كل قصائد المؤيد لنبين تأثره بالقدماء وتقليده لهم.

كلفه بالزينة البديعية

وكما كان المؤيد مقلدا للقدماء في ألفاظه ومعانيه كذلك نراه يتأثر بالاتجاه الفني الذي غلب على عصره، أى أنه تأثر بالمذهب القديم الذى أكثر منه مسلم بن الوليد فى القرن الثانى وأبو تمام فى القرن الثالث فى التلاعب اللفظى، وكان شعراء القرن الخامس يكفلون بالبديع وبالموسيقى اللفظية ويتلاعبون بالألفاظ، وأعجب جمهرة المتأدبين فى هذا العصر بهذا اللون من الفن وجاء المؤيد فأسرف فيه إسرافا شديدا وتكلف الزينة اللفظية والبهرج البديعى الذى أخذ ينتشر ويقوى فى الشعر العربى وفى النثر العربى أيضا منذ القرن الثانى للهجرة، وأخذ علماء البيان يكثرون من الحديث عن هذا الفن منذ عهد الجاحظ حتى إذا كان القرن الخامس وجدنا عدة كتب قد وضعت لهذا الفن وعدة مصطلحات خاصة به تدل على دقائقه وأساره فلا غرابة إذن إذا وجدنا المؤيد قد ذكر الاصطلاح الخاص الذى وضع للزينة اللفظية وهو "البديع" بمعناه الذى اتفق عليه علماء البلاغة:

وذكرها هجو للهجاء فمن يرد بديعا فذكرى للهجاء هجاء

فكأن المؤيد وهو ينظم هذا البيت قد تمثل أمامه ما ذكره العلماء عن علم البديع وتذكر المصطلحات التى وضعت له. فلولا معرفة المؤيد لهذا العلم ما أتى بهذا البيت، ولولم يستمع المؤيد إلى الشعر الذى ظهر فيه التكلف والصنعة والتلاعب بالألفاظ لما كلف نفسه وشعره هذا الفن البديعى الذى كثيرا ما كان يفقده المعنى الذى قصد كقوله مثلا:

شقاؤك فى جيد الشقاء قلادة وهل عجب أن للشقاء شقاء

وقوله:

بكيت إلى أن صار يبكى لى البكا فهل عجب أن للبكاء بكاء

فقد أراد في البيت الأول أن يصف حاك من ترك مذهب الفاطميين ومال إلى غيرهم بأنه شقى وأن شقائه أشد وأعظم من أى شقاء آخر فتلاعب المؤيد باللفظ كأنه فتن بالقافات الكثيرة التي في هذا البيت وشغف بلفظ الشقاء فكرر هذا اللفظ فأفسد المعنى وكذلك في البيت الثاني أعجب بلفظ بكى وما اشتق منه ولكن لم يخبرنا البيت عما أراده المؤيد إذ كيف يبكى البكاء؟ هذا ما أعجب منه وإن كان المؤيد قد ذهب إلى أنه لا سبيل إلى العجب من بكاء البكاء، ولكن المبالغة المحالة هي التي جعلت المؤيد يقول ذلك.

هذه أمثلة من عبث المؤيد اللفظي فقد حاول التطرف بالفن فجمل فنه بأنواع البديع فكان يكرر اللفظ في البيت الواحد أكثر من مرة محاولا أن يظهر شيئا من براعته اللفظية كقوله:

شق منى الفؤاد شقا وأشقى بالضنا شيقا إلى الوصل صبا

وقوله:

إذا ما لواء الحمد زين أهله فأنت لمحمود اللواء لواء

وقوله:

إنسان عين زمانه بولائه يسطو على غرر الزمان زمانه

وغير ذلك من الشواهد الكثيرة التي نستطيع أن نستخرجها بسهولة ويسر من ديوانه والتي تدل كلها على أن المؤيد كان شديد الشغف بهذا الفن البديعي ولكنه كثيرا ما كان يسقط في محاولته لهذا الفن لأنه أفسد كثيرا من المعانى التي كان يقصد إليها بمثل هذه المحاولات فكان مثله في ذلك مثل أبي تمام حين سمعه إسحق الموصلى ينشد:

المجد لا يرضى بأن ترضى بأن يرضى المؤمل منك إلا بالرضا

فقال إسحق: «يا هذا لقد شققت على نفسك إن الشعر لأقرب مما تظن^(١)». فكذلك المؤيد قد شق على نفسه حتى تكلف مثل هذه الأبيات التي أفسدت عليه شعره. ولكن نرى من ناحية أخرى أن المؤيد قد أضاف إلى بعض شعره بهذه الزينة البديعية جمالا وروعة حين استطاع أن يلائم بين اللفظ والمعنى وحين استطاع أن يجعل فنه البديعي

(١) الوساطة ص ٦٨.

وكثيرا ما كان المؤيد يُضَمَّن كل بيت معنى مستقلا^(١). وقد يضمن البيت معنيين يستقل كل واحد منهما جزءا من البيت كقوله :

إليه انتهى نص الإمامة، علمه لمرضى قلوب العالمين شفاء^(٢)

ففى القسم الأول من البيت مدح المؤيد إمامه بأن نص الوصاية انتهت إلى الإمام، وفى القسم الثانى مدح المؤيد إمامه أيضا بأن علم الإمام يشفى مرضى القلوب، أى أن المؤيد أتى هنا بمعنيين اختلف أحدهما عن الآخر فالمعنى كثيرا ما تتزاحم فى شعره.

(١) راجع فى القصيدة :لثالثة عشرة من البيت السادس عشر إلى البيت الحادى والعشرين فكل بيت يكاد يستقل

بمعنى يختلف عن سابقه وتاليه.

(٢) القصيدة الثالثة عشرة.

خاتمة

لعلك أدركت كيف كان المؤيد عالما من أكبر علماء عصره. وكيف كان واسع الثقافة والعلم بما كان يدور حوله من مختلف ألوان الحياة العقلية والأدبية، وكيف شارك في هذه الحياة العقلية وتلك الحياة الأدبية وكان نتيجة ذلك هذه الكتب التي وضعها المؤيد وأصبحت من أمهات كتب الدعوة الفاطمية بل لاتزال إلى اليوم في نظر طائفة البهرة من كتبهم المقدسة التي لا يصل إليها إلا من درج في علوم مذهبهم وبلغ أعلى درجاتها.

وقد ذكرنا كيف أثر المؤيد في معاصريه تأثيرا قويا واضحا وأنه استطاع أن يخلب معاصريه ببيانه ويسحرهم بفصاحته ويبههم بقوة حجته فانقاد له خلق كثير ولا سيما جمهور أهل الديلم في شيراز والأهواز فكانوا يثورون من أجله إذا أصابه من السلطان مكروه ولم يعبأ بوعيد الأمراء ولا بتهديد الشعب الذين كانوا يكرهون المؤيد ومذهبه بل استطاع المؤيد ببيانه وحجته أن يجذب السلطان أبا كاليحار إليه بعد أن كان لا يحتمل سماع ذكره بل ذهب المؤيد إلى أبعد من ذلك فقد أخضع السلطان له وجعله يعتنق مذهب الفاطميين، وأكثر من هذا كله فقد امتدت يد المؤيد إلى الخلافة العباسية في بغداد فاستطاع بهائه وتدبيره أن ينتزع بغداد من الخليفة العباسي فدعى على منابرها للخليفة الفاطمي مدة عام كامل لو كانت الأمور في مصر قد سارت على ما أراداه المؤيد لفقدت الخلافة العباسية من العالم الإسلامي ولكنه لم يجد بين الوزراء المصريين من يصغى لآرائه ويعمل بمشورته وهكذا كان أثر المؤيد في السياسة قويا واضحا.

أما من الناحية العلمية والأدبية فقد كان المؤيد معلما له تلاميذ استمعوا إليه وأخذوا عنه، وكنت أرجو أن تتيح لي ما أعرفه من الفارسية لأتحدث عن تلميذ له عرف عنه أنه من أشد الناس تأثرا بالمؤيد ذلك التلميذ هو ناصري خسرو الشاعر الفارسي الذي وصف مجلس المؤيد كثيرا في أشعاره كقوله :

- | | |
|-------------------------------|-----------------------------|
| (١) كه كرد از خاطر خواجة مؤيد | در حكمت كشاده برتويزدان |
| (٢) هرانك أورا ببيند روز مجلس | ببيند عقل را سردر كريبان |
| (٣) شب من روز رخشان كرد خواجة | ببرهان هاي چون خورشيد رخشان |

- (٤) زى كوشه منظر أوبن كرىدم بزيرى خویش ديدم شرخ كردان
 (٥) مرا بنمود حاضر هر دو عالم بيك جا در تنم بيداً و پنهان
 (٦) بيك جاما لك و رضوان بديدم نشسته در برم فردوس و نيران
 (٧) مرا كفتاكه من شاكردا اويهم اشاره كرد آنكه سوى رضوان^(١)

وترجمتها إلى العربية:

- (١) إن الله قد فتح عليك باب الحكمة مما تفتح عنه خاطر الأستاذ المؤيد.
 (٢) كل من يراه يوم المجلس يرى عقلاً مفكراً.
 (٣) إن الأستاذ جعل ليلي يوماً مشرقاً ببراہين منيرة كالشمس.
 (٤) إنى نظرت من زاوية عقله فرأيت الفلك دائراً تحتى.
 (٥) فقد أطلعنى على العالمين (الظاهر والباطن) على أنهما حاضران وفى مكان واحد من وجودى.
- (٦) إنى رأيت فى مكان واحد مالكا ورضوان واستقر فى صدرى الفردوس والنيران
 (٧) وقال لى إننى تلميذه وأشار عندئذ إلى رضوان^(٢)
 وكنت أرجو أن أتحدث عن أثر المؤيد فى ناصرى خسرو ولكن معرفتى بالفارسية لا تؤهلنى لذلك.

وفى مصر وصل المؤيد إلى مرتبة داعى الدعوة فكان بذلك أستاذاً الأكبر واجتمع حوله المؤمنون بدعوته يأخذون عنه أسرار الدعوة ودقائقها وهى التى أودعها المؤيد كتابه المعروف بالمجالس المؤيدية ولكن لم يصلنا من كتب الدعوة التى وضعت فى مصر بعد المؤيد ما نستطيع بها أن نقرر مدى أثر المؤيد فى العلماء المصريين.

ومع ذلك فالمؤيد من ناحية أخرى يعد أستاذاً الدعوة الفاطمية فى اليمن مع أنه لم يرحل إليها بل نقل تلاميذه إلى اليمن آراءه وتعاليمه، وعلماء الدعوة فى اليمن هم أكثر الناس حديثاً عن المؤيد واقتباساً من كتبه واستناداً لحججه وأشدهم اعتقاداً بأن الحق هو ما قاله المؤيد دون غيره من الدعوة ويكفى أن ننقل ما ذكره صاحب كنز الولد^(٣) لنؤيد ما ذهبنا إليه. قال: وسيدنا المؤيد أقرب الحدود إلينا وهو لا يأتى إلا بصحيح ما جاء به الحدود

(١) ديوان ناصرى خسروا طبع طهران سنة ١٣٠٧ ص ٣١٣.

(٢) تفضل بمساعدتى فى الترجمة زميلى الصديق الدكتور إبراهيم أمين مدرس اللغة الفارسية بالكلية.

(٣) على حاشية المجالس المؤيدية ج ١ ص ١٣٤.

والغاء ما كان فيه شبهة أو فساد لأن الآخر ينسخ ما جاء به الأول بإيضاح الرموز والمؤيد حجة رائع الإشهاد ذو القوة في العلم والتأييد والحكمة والتسديد المنصوص عليه باسم الحججية كما قال مولاه:

ياحجة مشهورة في الورى وطود علم أعجز المرتقى

فهذه شهادة من لا ترد شهادته وأمر من لا يرد أمره وتفويضه له في نشر ما أحب أن ينشره من العلم بلا حصر ولا قصر لعلمه بما عنده من الحق.

أما الذى نقل آراء المؤيد إلى اليمن فهو تلميذه لمك بن مالك قاضى قضاة اليمن فى عهد الصليحى ولم أجد فى الكتب التى تتحدث عن اليمن وتاريخها شيئاً عن لمك بن مالك ولكن الحسن بن نوح صاحب كتاب الأزهار ذكر لنا قصة طويلة عنه فقال إن الصليحى بعد أن تم له ملك اليمن ومكة ودعا فى بلاده للمستنصر الفاطمى أرسل قاضى قضاته لمك ابن مالك إلى مصر على رأس جماعة من وجوه الأولياء للسماح للصليحى فى النهوض إلى العراق ولما جاء لمك مصر نزل فى دار المؤيد وانتهمز هذه الفرصة فأخذ عن المؤيد أسرار الدعوة، وكان يكتب كل ما سمعه عن أستاذه وظل يلزم المؤيد خمس سنوات ملازمة الظل إلى أن استوعب كل ما عند المؤيد وكان المستنصر قد حجز وفد اليمن لأسباب لم يذكرها ولم يسمح لهم بالسفر إلا بعد قتل الصليحى سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة^(١). ولما عاد لمك إلى اليمن بخل بعلمه ولم يسمح إلا بالشيء القليل منه للداعى المكرم بن الصليحى المتوفى سنة ٤٨٤^(٢) والملكة الحرة أروى وأحمد بن قاسم بن ولى وغيرهم من دعاة اليمن، ولكن لمك بن مالك اختص ابنه يحيى بن لمك بجميع ما عنده من العلم والحكمة وسلمه كل مادونه عن المؤيد فهياً بذلك ابنه يحيى لتولى الدعوة حتى صار يحيى حجة اليمن فى عهد الخليفة الأمر الفاطمى. فأخذ يحيى فى إلقاء دروس الحكمة التى أخذها أبوه عن المؤيد على جمهرة دعاة اليمن، وذكر منهم صاحب الأزهار جماعة منهم الخطاب بن الحسن المتوفى سنة ٥٣٣ هـ وذيّيب بن موسى المتوفى سنة ٥٤٧ هـ^(٣).

والداعى ذيّيب بن موسى أستاذ الداعى إبراهيم بن الحسين الحامدى المتوفى سنة

(١) فى كتاب الأزهار أن الصليحى قتل سنة ٥٣ هـ وتبعه فى ذلك الدكتور حسين الهمدانى بينما اتفقت كل كتب التاريخ على أنه قتل سنة ٤٧٣ هـ.

(٢) فى كتاب الأزهار أن المكرم توفى سنة ٤٧٧ هـ، بينما كتب التاريخ تجمع على أنه توفى سنة ٤٨٤ هـ.

(٣) كتاب الأزهار ج ١ ص ٣٨ وما بعدها (نسخة خطية بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن رقم ٢٥٨٤٩).

٥٥٧هـ وهكذا أخذ دعاة اليمن علوم الدعوة أحدهم عن الآخر وأستاذهم الأول فى ذلك هو المؤيد. وإذا تصفحنا كتب الدعوة التى وضعت فى القرنين السادس والسابع لا نجد كتابا منها يخلو من استشهاد بأقوال المؤيد أو بأشعاره وكان أصحاب هذه الكتب يشيرون إلى المؤيد بقولهم "سيدنا المؤيد" إمعانا فى تعظيمه، فصاحب كنز الولد ذكر المؤيد أكثر من أربعين مرة فى كتابه واقتبس من مجالسه ومناجاته وشعره، وصاحب الأنوار اللطيفة ذكر المؤيد أكثر من ثلاثين مرة كما رتب المجالس المؤيدية وجمعها فى كتاب باسم "جامع الحقائق". ونقل صاحب كتاب "الأزهار" فصولا بأكملها عن المؤيد منها رسائل المؤيد إلى أبى العلاء المعرى. وإذا فقد كان المؤيد عظيم الأثر فى الدعوة الفاطمية ولاتزال كتبه إلى الآن من أمهات الكتب التى لا يقربها إلا شيوخ الدعوة الطيبية فى الهند واليمن.

أما أثره من الناحية الأدبية فهو أثر ضعيف لا يكاد يذكر فأشعاره ورسائله ومناجاته التى استشهد بها علماء اليمن لم يذكروها إلا لإثبات عقيدتهم الدينية ولم يحتفظ علماء الدعوة بديوان المؤيد إلا لأنه من الآثار الدينية ومن كتبهم المقدسة التى يقرأونها بعد الصلاة أو قبلها على النحو الذى يتبعه الصوفية فى قراءة الأوراد. ولو لم تأخذ أشعار المؤيد هذه الصفة الدينية لضاع شعر المؤيد كما ضاع شعر غيره من الشعراء.

وفى عصرنا الحديث لو لم ينشر الأستاذ مرجوليوث رسائل المؤيد مع أبى العلاء لظل المؤيد مجهولا.

وبعد: أرجو أن أكون بهذا البحث قد وفقت إلى الكشف عن شخصية المؤيد داعى الدعوة، وأن أكون قد وفقت أيضا إلى إظهار حقيقة مذهب الفاطميين التى ظلت موضع شك مدة طويلة.